قسم / التربية الفنية

المرحلة / ماجستير

اسم المادة / التربية الجمالية

اسم المحاضرة / أبو حيان التوحيدي وفلسفته الجمالية في التذوق الفني

اعداد / أ.م.د أسامة عدنان الجبوري

2024

من هو ابو حيان التوحيدي:

هو علي بن محمد بن العباس ، وكنيته ابو حيان ، ولقب بالتوحيدي لان اباه كان يبيع نوعاً من التمر ببغداد اسمه توحيد ، ويرى ابن حجر العسقلاني ان هذا اللقب يحتمل ان يكون نسبة الى التوحيد الذي هو الدين لان المعتزلة كانوا يسمون انفسهم اهل العدل والتوحيد ، ولكن ابا حيان لم يعترض لهذا اللقب في كتاب من كتبه ولم يشر ابو حيان من قريب ابو بعيد الى نسبه او نسب اسرته.

كأنما تأبى حياة ابي حيان الا ان تكون سلسلة موصولة من حلقات الضيق والغرائب والمفارقات ، او كأنما ارادت له اخلاقه ومزاجه ان يكون ذا عجائب وغرائب.

هو اديب وحكيم وفيلسوف ، عاش في القرن الرابع للهجرة ، نشأ في بغداد ، ثم انتقل الى الرى ، ومات عام ٤١٤هـ في شيراز عن عمر يناهز القرن . ترك عدداً كبيراً من المخطوطات حقق المعروف منها ونشر مؤخراً ، كان ابو حيان قد أحرق قبل موته ما كتبه مما لم يصلنا ، انه فرد الدنيا الذي لا نظير له ، ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة.

تميزت ثقافة التوحيدي : بالتنوع ، والتعمق ، والابداع ، فأما عن التنوع فنجده في المدى الواسع في مجالات الفكر التي يتناولها بالسرد او النقل او المناقشة ... اما التعمق فنلمحه في عرضه لهذه الافكار والاتجاهات المختلفة ، وهو مع كثرة الموضوعات التي يكتب فيها نجده في جلها متمكنا من موضوعه محيطاً بدقائق علمه .

يعد ابو حيان التوحيدي واحد من عمد الثقافة العربية في القرن الرابع الهجري ، وهو عصر ازدهار الثقافة والآداب والفنون بل كان ربيعها وشبابها الناضر وفيه بلغت الفلسفة شأناً عظيماً ، ويعتبر ابو حيان الجاحظ عميد الادب العربي في القرن الثاني اول من تتلمذ التوحيد عليه ، ومن قراءاته لمؤلفاته حتى ان بعض النقاد قال عنه انه الجاحظ الثاني ، لانه كان شاهد عصره ، اي مسجل اقرن الرابع كما كان الحال بالنسبة للجاحظ في القرن الثاني.

ان دور التوحيدي لم يكن مجرد نقل آداب وفلسفة القرن الرابع ، بل كان البوتقة التي انصهرت فيها تلك العلوم والآداب والفنون والقضايا الفلسفية فهو كأمة النحل التي تجود علينا برحيق سائغ شرابه ، فيه شفاء للناس أجمعين.

درس ابو حيان التوحيدي الفلسفة على يد ابى زكريا يحيى بن عدي المنطقي ، وقرأ في بغداد على يد سليمان المنطقي (محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني) ، كذلك تتلمذ على يد تبى محمد المقدسي العروضي ، وابو الفتح النوشجاني ، وابو زكريا الالصيمري ، وابو بكر القومسي ، وعيسى بن علي ، ومسكويه ، وان كتابه (الهوامل والشوامل) ان هو الا اسئلة سأل استاذه مسكويه عنها فأجابه عنها ، ومن اساتذته ايضاً الحسن العامري وابو النفيس الرياضي ، وعلي بن عيسى الرماني ، وقد أثنى عليه في كتابه (تقريظ الجاحظ).

لقد كان التوحيدي يطمح الى ان يجد في الفلسفة ما يعزيه عن خيبة امله ، والى ان يعثر على جواب عن الاسئلة الكثيرة التي كانت تدور في ذهنه ولا سيما حول العلم والمال وانهما لا يجتمعان : واذ لماذا كان ذوو الفضل والعلم محرومين من الرزق ، ولماذا يجد الناقصون من الناس الرزق والمال والشهرة ؟ هذا السؤال حير التوحيدي فترة طويلة ، ولما لم تستطع الفلسفة ان تفسر له بعض الامور التي كانت تحيره فقد اتجه الى التصوف.

ابو حيان التوحيدي من المتصوفين الاوائل الذين ساروا في درب التصوف وهي رحلة طويلة بدأها بالتفقه في الدين ، ودراسة علم الكلام للرد على المناطقة والمتفلسفين ، وكان نتاج رحلة التصوف كتابه الاشارات الالهية والرسائل الصوفية ورسالة في اخبار الصوفية ، كما لم تخل كتبه الاخرى من المواقف التصوفية.

قال الاديب المؤرخ المحقق المدقق ياقوت الحموي عن ابي حيان التوحيدي "كان –اي التوحيدي– متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والادب والفقه والكلام على رأي المعتزلة ، وكان جاحظياً يسلك في سبيله مسلكه ، ويشتهي ان ينظم في سلكه ، فهو شيخ الصوفية ، وفيلسوف الادباء واديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين وامام البلغاء ..." .

اتفق المؤخون والدارسون على انه ليس مجرد مسجل لثقافة القرن الرابع الهجري ، وانا هو صاحب دور جوهري وخلاق وحضاري ، قام به في تلك الفترة ، ويرى الدكتور زكريا ابراهيم بانه بوصفه مفكراً موسوعياً حاول ان يمزج الفلسفة بالادب ، قدم للجمهور حكمة شخصية تكون في متناوله ، والتوحيدي جمع بين التراث اليوناني من جهة والثقافة العربية من جهة اخرى مما اهله للقيام بهذا الدور الحضاري المهم في عصر كثرت فيه المجالس الادبية والندوات الفكرية.

كان التوحيدي يرى ان لا علاقة للفلسفة بالدين ، فالدين لا جدال فيه ، ومن اراد التفلسف فعليه ترك الدين جانباً ، والفلسفة تأتي من العقل وهي كمال بشري يصل اليه الانسان عن طريق العقل ، أما الدين فهو كمال الهي يصل اليه الانسان عن طريق هدى الله ، والكمال البشري فقير الى الكمال الالهي ، والكمال الالهي غني عن الكمال البشري.

ابو حيان التوحيدي هو اعظم مفكر اسلامي استطاع في القرن الرابع الهجري ان يحيل التراث الفلسفي الى ثقافة حية نامية متطورة ، واستطاع ان ينشر الوعي الفلسفي بين الخاصة وجمهرة العامة على السواء ، مما اثار الدهشة في اذهان الناس لطريقته المبتكرة الفلسفية الطريفة ، بعرضه جميع القضايا الفكرية ، لا سيما التفكير في وحدانية الله تعالى ، وقصة الوجود ، وذلك في عملية تساؤلية تقوم على طرح المشكلات واثارة الشبهات والرد عليها بتفكير عقلاني ومتزن ، وقد قدم لنا هذه القضايا في كتبه العديدة مثل : الامتاع والمؤانسة ، الاشارات الالهية ، والهوامل والشوامل والمقتبسات وغيرها . يرفض التوحيدي بحث ماهية الله من خلال جماعة المشبهة او غير المشبهة ، ولكنه يقول ان المطلق "لا سبيل للعقل ان يدركه او يحيط ب هاو يجده وجداناً".

يقول ابو حيان التوحيدي انه من العبث محاولة وصف الذات الالهية ، او التعرف على حقيقة الجوهر الالهي : وحسبنا ان نقول عن الله تعالى ، ان الكل باد عنه وقائم به ، وموجود له ، وصائر اليه ، وكيف لنا ان نعرف الخالق وان نصفه سبحانه ونحن نعجز من معرفة بعض المخلوقات أو وصف بعض الموجودات.

لا يتوقف التوحيدي عن دعوة الانسان الى معرفة نفسه بل يساعده في ذلك ، فيعرض له خبرته في النفس الانسانية ، فالانسان كائن حي ناطق يجسده الموت والفناء مركب من الاخلاط الاربعة بنسب مختلفة ، وهو مكون من ثلاث قوى هي النفس الناطقة (العقل) ، والنفس الشهوية

(عريزة اللذة) ، والنفس الغضبية (الانفعال) ، يقدم التوحيدي النفس الناطقة على ما سواها ، فالنفس الناطقة جوهر الهي ، والانسان لم يكن انساناً بالروح بل بالنفس ، ولو كان كان انساناً بالروح لم يكن بينه وبين الحيوان فرق ، اما النفسان الاخريان الغضبية والشهوية ، فانهما اشد اتصالاً بالروح منهما بالنفس ، والروح اشد اتصالاً بالجسد ، فليس كل ذي روح ذا نفس ، ولكن كل ذي نفس ذو روح.

ابو حيان التوحيدي الفنان الأديب:

عاش ابو حيان التوحيدي في عصر أدبي غلب عليه الجمالية اللفظية ، والبديعية والزخرفة ، كما بدا ذلك في اسلوب ابن عباد او الحريري او الخوارزمي من معاصريه ، على ان ابا حيان سلك مسلك الثقافة الرصينة العميقة والتجأ الى الفن في الكلام ، معبراً عن اصدق ما تعتل جبه نفسه ، ويحلق خياله ، فكان له اسلوب متفرد اصبح ظاهرة مستقلة انضمت الى اسلوب امثاله من بعض ادباء زمانه.

ان نظرية المعرفة عند التوحيدي تنطلق من معرفة العالم الصغير الذي هو النفس الانسانية للوصول الى معرفة العالم الكبير الذي هو الكون بجميع مفرداته ، والعلاقة بين هاتين المعرفتين جدلية تمي الى معرفة موجود العالمين الا وهو الذات الالهية.

ان مطالعة كتب ابى حيان تبين لنا ان هذا المفكر كان فناناً وناقداً وفيلسوفاً وفنياً ، ولعله اول عربي رضع علم الجمال العربية مأخوذاً عن آراء معاصريه ، ومدبجاً باسلوبه ، بل لعله اضاف اليه من افكاره وحصر فيه من الآراء المتفقة مع آراءه ، مما جعله اقرب الى فلسفته الخاصة ، وان كنا نميل الى اعتبار ما كتبه في علم الجمال العربي ، انما هو مجموعة آراء المفكرين العرب والادباء والفنانين الذين اهتموا بالفن والصياغة ، كما اهتم هو .

ان آراء سقراط وافلاطون وارسطو الجمالية ، وافلوطين من بعدهم ، تظهر في اقوال التوحيدي ، ولا سيما آراء افلوطين الذي كان يفهم العالم على انه فيض الهي ، ويرى ان غاية الانسان المثلى في هذا العالم هي معرفة الله والعودة اليه ، وذلك لا يكون الا عن طريق الزهد ،واحتقار عالم المشاعر واضعاف الجسد الذي يعتبره افلوطين عائقاً مادياً أما الرقي الروحي . اما افلاطون فان آراءه في طبيعة الجمال تقترب جداً من آراء التوحيدي حيث ينحو كلاهما منحى

صوفياً مثالياً ، يعتمد على ان الجمال غير موجود في هذا العالم بل في عالم آخر هو عالم المثل عند افلاطون. ان الحديث عن أسلوب أبى حيان التوحيدي الفني يفتح لنا الباب واسعاً لعرض آرائه في فلسفة الجمال والفن ، ذلك ان الفنان المبدع قادر أكثر من غيره على تحليل أعماله والغوص في أبعادها الفلسفية وعلى تجميع المبادئ التي تشكل مفهومه الفني ، فهو أول فنان وفيلسوف فن في تاريخ الإبداع العربي استطاع ان يقدم فلسفته الجمالية عن خبرة جمالية إبداعية ، واستطاع ايضاً ان يلخص مفهوم فلسفة الفن عند العرب منذ القرن الرابع الهجري.

تقوم نظرية التوحيدي المعرفية على معرفة النفس التي هي جزء من كل ، ولا يد لمعرفة الكل من معرفة الجزء ، وان كانت تلك المعرفة لا تقتصر على العقل أداة لها بل تعتمد أيضاً على الحس الانساني أداة العقل في الادراك والمعرفة. يقول ابو حيان التوحيدي على لسان ابي سليمان ، في معرض التفريق بين الانسان والحيوان "ذكر بعض الباحثين عن الانسان انه جامع لكل ما تفرق في جميع الحيوان ثم زاد عليها وفضل بثلاث خصال :

بالعقل والنظر في الامور النافعة والضارة

بالمنطق لابراز ما استفاد من العقل بواسطة النظر

بالايدي لاقامة الصناعات وابراز الصور فيها مماثلة لما في الطبيعة بقوة النفس"

ونستطيع ان نستخلص من ذلك تعريفاً للعمل الفني ويتضمن العناصر التالية :

١. ان العمل الفني عمل إنساني لا يستطيع الحيوان ممارسته.
٢. انه يتم بالأيدي لأنه يتطلب المهارة ، وليس العقل.
٣. ان اليد تتبع النفس الملهمة ، ولا تتبع العقل الذي يبحث في الأمور النافعة والضارة ، او المنطق الذي يستخلص نتائج العقل.
٤. ان العمل الفني يتجه الى مماثلة الطبيعة بقوة النفس.

ان التوحيدي يدعو الانسان الى معرفة نفسه ليستطيع معرفة الآخرين وليدرك طبيعة الحياة ومظاهرها من حوله ، فمعرفة النفس هي السبيل الاولى والأساسية لمعرفة العالم واستيعابه وامتلاكه جمالياً ، ذلك ان معرفة الفرد الحقيقية للعالم لا تنطلق من معرفته لهذا العالم من خلال

آراء الاخرين ومعرفتهم له لان الانسان في هذه الحالة لا يكون مدركا وعارفا طبيعة العالم وانما يكون مقلداً الاخرين في ذلك. وتحقيق وجود الانسان لا يكون الا من خلال ادراكه نفسه باعتبارها كائنا متميزاً عن بقية النفوس. لان العمل الفني هو مطابقة الطبيعة بما فيها من فعل النفس ، فان الإبداع مقصور على الإنسان دون الحيوان . على ان التوحيدي لا ينكر ان الحيوان يتأثر بالجمال الصوتي او غيره ، اي انه قادر على التذوق الغريزي ، ولكنه لا يؤكد ذلك بصورة قاطعة. يؤكد التوحيدي ان مصدر الجمال الارضي هو الله ، مثال الجمال ، وخالق الوجود ، ومثال لا ينشأ ولا ينعدم ، فهو خارج الزمان والمكان ، والحركة والتغير غريبان عنه ، وهو يفيض بالحسن على الاشياء كلها لانها من معدنه ، وصدرت عنه ، وانما استمدت الاشياء جمالها منه. ومن هنا يتجلى الدور الذاتي في الفن ، ذلك ان النفس ، وهي العلامة بالذات ، تبقى عند ابى حيان فوق الطبيعة ، وان هذه الذات تستطيع ان تدرك اسرار الطبيعة والوجود ادراكاً سامياً اذا هي تجردت عن التأثيرات الأخرى.

ان التوحيدي ، لا يقصر الربط بين مفهوم الجميل ومفهوم النافع على الجمال المادي وانما يمده الى الجمال المطلق ، فالخير الامثل لديه هو ادراك الجمال المطلق ومصدره الله ، وما الجمال المادي النسبي الا وسيلة تشوق الى الجمال الازلي وتذكر به ، وما على الانسان الا ان يسعى اليه ويسخر في ذلك كل قواه وملكاته. من هنا نصل إلى مفهوم الإبداع ونميزه عن العمل العقلي ، وهو عند التوحيدي يقوم على البديهة والإلهام ، ثم على العمل المسؤول المثقف. على إن الإلهام او البديهة قد تنزلق إلى الارتجال والتفيهق والوهم. حاصل ما يقول ابو حيان في الإنسان انه متميز بالنفس والعقل والتحكم بالعمل ، وهو اذا كان يتمتع بالروح كالحيوان فلأن الروح هي سبب الحياة ، أما النفس فهي من خصائص الإنسان فقط.

تمتاز الطبيعة على الفن في ان الفن يقوم بمحاكاة الطبيعة الالهية المنشأ نسخها ، ويذكر ابو حيان على لسان مسكويه "ان الطبيعة فوق الفن الصناعة ، وان الفن دون الطبيعة ، وان دور الفن التشبه بالطبيعة ، وليس بمقدرة الفنان ان يتجاوز ذلك مدعياً إكمالها ، وتكمن قوة الطبيعة في انها إلهية ، اما الفن فهو بشري مستخرج من الطبيعة".

يفرق ابو حيان بين الصور–الطبيعة وهي صورة الواقع او الموضوع بذاته ، والصورة الفنية المشبهة التي تفارق الاصل مفارقة تامة او محدودة ، وهذا ما يسمى بتحرير الواقع ، حيث يقول

"كل جسم له صورة ، فانه لا يقبل صورة اخرى من جنس صورته الاولى البتة ، وإلا بعد مفارقته الصورة الاولى ، ومثال ذلك ان الجسم اذا قبل صورة او شكلا كالتثليث ، فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير ، الا بعد مفارقته الشكل الاول"... ولان الطبيعة ليست هي المطلق ، بل هي آثار هذا المطلق ، كان التعامل معها– بقوة النفس– أساس العمل الفني التشبيهي الذي لا نرى مبرراً لمنعه وتحرمه.

فالابداع يهدف الى ابراز صور وموضوعات مشابهة للصور والموضوعات الموجودة في الطبيعة ، ولكن هذا الابداع لا يستطيع مطلقاً ان يقترب في كمال موضوعاته من كمال موضوعات الطبيعة التي يقلدها ، فالطبيعة هي المثال الذي يحتذى ويقلد بالنسبة الى الانسان المبدع. من هنا كان ترجح التوحيدي بين مفهومي الجمال المطلق والنسبي ودعوته الى ذلك النوع المطلق من الجمال ، فحقيقة الاشياء عند التوحيدي هي حقيقة الهية ، والجمال بالذات هي مبدأ الجمال في الموجودات جميعها وهو غايتها الاخيرة.

فالجمال اذن عند التوحيدي هو التعالي ذاته ، وهو الوصول الى الكمال ، ان الجمال المطلق عنده لا يوضع في مستوى الحياة فهو اسمى من هذا العالم ، ويعلو عليه ، ولكي ندركه علينا ان ندرك جوهر الجمال في الأشياء المحيطة بنا في العالم ، ولا بد لذلك من العقل ، والجميل في الأرض انما يكون كذلك لارتباطه بالجمال المطلق ، فالجمال المطلق عند التوحيدي موضوع خارجي وليس ذاتياً تخلعه النفس على الأشياء التي تراها جميلة. ان التوحيدي لا يفصل بين العقل والحس ، فكلاهما ضروري للحياة الانسانية ، وللمعرفة والعمل معاً ، واذا كام يدعو الى سيطرة العقل على الحواس فانه يضيف ان العقل لا يستطيع ان يعمل اذا لم يعتمد على الحواس ، فالحواس عماله ، ولا بد للملك من عمال ، على ان اخص هؤلاء العمال بالعقل هما : السمع والبصر ، لانهما خادماً المفس في السر والعلانية ، ومؤنسها في الخلود ، وممداها في النوم واليقظة.

انتهى